العمـــــدة

لابن رشيق القيروانى

٣٩٠ هـ - ٤٥٦ هـ

obeikandl.com

تعريف بالمؤلف :

هو أبو الحسن بن رشيق المعروف بالقيراونى أحد الأفاضل البلغاء له التصانيف المليحة منها : كتاب العمدة فى معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه وكتاب الأنموذج والرسائل الفائقة والنظم الجيد[٢٧] .

ويقول صاحب الحلل السندسية فى كلامه على القيروان " ومن بلغاء القيروان وابنائها : الحسن بن رشيق أحد البلغاء الأفاضل . ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة[٢٨] ويقول ابن بسام : بلغنى انه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة[٢٩] وقال غيره : ولد بالمهدية سنة تسع وثلاثمائة وأبوه مملوك رومى من موالى الأزد[٣٠] .

وقال غيرهم : ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة وأبوه مملوك رومى من موالى الأزد . وتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وكانت صنعة أبيه فى بلده (المحمديه) الصياغة . فعلمه أبوه صنعته وقرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر وتاقت نفسه إلى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب فرحل إلى القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها " المعز بن باديس المنصور " ولم يزل بها إلى أن هجم العرب عليها وقتلوا أهلها وخربوها . فانتقل إلى صقلية وأقام بمازر إلى أن مات[٣١] .

ومختلف فى تاريخ وفاته : فيقول ابن خلكان : رأيت بخط بعض الفضلاء : انه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة (بمازر) ونحن نميل إلى ذلك القول ، لتضافر الروايات وتوافق الآراء على انه مات فى هذه السنة . حيث ان ابن خلكان

---

[٢٧] - وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق – د : إحسان عباس – المجلد الثانى ص ٨٥ دار صادر – بيروت .
[٢٨] - الحلل السندسية .
[٢٩] - الذخيرة لابن بسام ص ٥٩٧ – القسم الرابع – المجلد الثانى – تحقيق د : إحسان عباس دار الثقافة بيروت .
[٣٠] - العمدة لابن رشيق .
[٣١] ذاته .مازر . قرية بجزيرة صقلية . منها المازرى يرحمه الله .

لم يحدد الوفاة ولا الشهر ، والثانى حدد اليوم والشهر وذكر ذلك القول أيضا ياقوت فى معجم الأدباء ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون حيث قال : توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة[٣٢] .

ويقول صاحب شذرات الذهب أنه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة[٣٣] .
وقال غيره ولد بالمهدية سنة تسعين وثلاثمائة ونرى ابن رشيق يؤرخ لنفسه . ويقول صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ملى من موالى الأزد ، ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة . وتأدببها يسيرا وقد إلى الخضرة سنة ست وأربعمائة . ويقول ياقوت : إن وفاته بالقيروان سنة ست وخمسين وأربعمائة عن ست وستين سنة ذكر ابن رشيق فى كتابه الذى صنعه فى شعراء عصره ووسمه بالنموذج[٣٤] .

وكانت بينه وبين ابن أشرف القيروانى وقائع وهما أديبا بلاد المغرب وشاعراها ، وكتن ابن أشرف أعور . قيل : مر يوما وبيده كتاب فقال له ابن رشيق ما فى كتابك ؟ قال : الدريدية . يعرض يقول ابن دريد فيها : والعبد لا يردعه إلا العصا . يشير إلى أنه مولى . فقال له ابن رشيق :

أما أبى فرشيق لست أنكر قل لى أبوك وصوره من الخشب

ومن شعره أيضا . وقد غاب (المعز بن باديس) عن حضرته وكان العيد ماطرا :

تجهم العيد وانهلت بوادره وكنت أعهد منه البشر والضحكا
كأنه جاء يطوى الأرض من بعد شوقا إليك فلما يجدك بكى

وقال أيضا وقد أمره المعز بوصف أترجة مصبعة كانت بين يديه :

أترجة ضبطة الأطراف ناعمة تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنها بسطت كفا لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس

---

[٣٢] - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة . مكتبة المثنى – بيروت ص ١٨ .
[٣٣] - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ٣ / ٢٩٧ . ٢٩٨
[٣٤] - معجم الأدباء لياقوت ٨/ ١١ .

ومن شعره أيضا :

لو أورقت من دم الأبطال سمرتها لأورقت عنده سمر القنـــا الذيل

إذا تـوجـــه فى أولـــى كتائبـــه لم تفرق العين بين السهل والجبل

فالجيش ينخفض حوليه أسنتـــه نفض العقاب جناحيهـــا من البلل

هذا البيت من فوائده ، وهو ملتقط من قول أبى الصخر الهذلى :

وإنى لتعرونى لذكراك فترة كما انتفض العصفور بلله القطر(٣٥)

ومن شعره أيضا :

يارب لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف المرذى

مالى بعثت إلى ألف بعوضـة وبعثـــت واحـــدة إلـــى نمـــروز(٣٦)

وكان بينه وبين أبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد المعـروف بـابن شـرف القيروانى مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل فى فى الرد عليها منها :

رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب ، ورسالة قطع الأنفاس ورسالة نقد الرسالة الشعوزية ، والقصيدة والرسالة المنقوضة ورسـالة رفـع الأشـكال ودفـع المحال. وله كتاب أنموذج الشعراء ، شعراء القيروان[٣٧] وقراصنة الذهب ، وكتاب الشذوذ فى اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها . وكتاب " طراز الأديب " وكتاب الممادح والمذام وكتاب متفق التصفيح وكتـاب تحريـر الموازنـة وكتـاب الاتصال وكتاب المن والغذاء . وكتاب غريب الأوصاف ولطائف التشـبيهات لمـا انفرد به المحدثون وغير ذلك[٣٨] .

---

٣٥ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ـ دار الجيل ـ بيروت ٨٦ / ٧ تحقيق د : إحسان عباس .

٣٦ ـ ذاته ص ٨٨ .

٣٧ ـ العمدة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ص ١١ .

٣٨ ـ الوفيات ص ٨٨ .

obeikandl.com

وقال صاحب الوافى . وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره فى الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره فى النقد . وله شذوذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها[٣٩] :

ومن شعره :

أحب أخى وإن أعرضت عنه وقل على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض كما قطبت فى وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض وبغض كان من تحت ابتسام

ومنه :

ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القذى من عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا
ومنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير يلتقط الحب(٤٠)

قال الأبى وردى وما هذا بأحسن من قول ابن المعتز :

كم من عناق ومن قبل مختلطات حذار مرتقب
نقر العصافير وهى خائفة من النواطير يانع الرطب(٤١)

قال فى الوافى : قلت : مقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق . لان ابن رشيق: ذكر انه في ليلة امن وهما عنده من حسنات الدهر .

---

[٣٩] - الوافى من الوفيات .
[٤٠] - العمدة لابن رشيق ١١ / ١٢ .
[٤١] معجم الأدباء لياقوت ٨ / ١١٦ .
النواطير : جمع ناطور وهو حارس الكرم وحافظ .

obeikandl.com

فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع الأمن بالتقاط الطير الحب لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة . وأما ابن المعتز فإنه كان خائفاً يختلس التقبيل ويسرقه كما يفعل العصفور فى نقر الرطب اليانع :

لأنه يقدم جازعاً خائفاً من الناطور ، فلا يطمئن فيما يلثمه ألا ترى الآخر كيف قال :

أقبله على جزع — كشرب الطائر الفزع

رآى ماء فواقــه — رخاف عواقب الطمع(٤٢)

شيوخـــــــه

أخذ بن رشيق عن شيوخ أجلاء ، وأساتذة نجباء ، منهم :

أولا : أبو عبد الله محمد بن جعفر الفراز القيروانى النحوى من أهــل القيــروان ، وكان إماما عالما باللغة ، كما كان ناقدا ، وشاعرا مبدعا ، وأخذ عنه ابن رشيق ست سنوات تقريبا ، حتى مات سنة ثلاث عشرة وأربعمائة من الهجرة ، ونقل عنه ابــن رشيق فى كتابه " العمدة " .

ثانيا : كما أنه تلقى لأدب عن الأديب البارع أبو محمد عبد الكــريم بــن إبــراهيم النهشلى وكثيرا ما كان ينقل عنه ابن رشيق فى كتابه " العمدة " وهو أديب فاضل ، وترجم له ابن رشيق كتابه " الأنموذج ".

ثالثا : أبو إسحاق العصرى القيروانى صاحب كتاب " زهر الآداب وثمرة الألباب " وقد أفاد منه ابن رشيق القيروانى إفادة جمة وأثنى عليه وامتدحه حيث إنه قال فيه : (وكان شاعرا ناقدا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة

---

٤٢ - راجع معجم الأدباء لياقوت الحموى ٨/ ١١ .

obeikandi.com

ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره ، وعنده من الطبع، لو أرسله على سجيته لجرى جرى الماء ، ورق رقة الهواء) .

رابعا : أبو عبد الله عبد العزيز بن سهل الخشنى الضرير ، وقد نقل عنه ابن رشيق القيروانى فى كتابه (العمدة) وكان يجله ويقدره ، ولا يصفه بالضرير تأدبا منه معه ، وفيه يقول ابن رشيق كان مشهورا ، بالعلم والنحو واللغة ، ولم ير قط ضرير أطيب منه نفسا ، ولا أكثر منه حياء مع دين وعفة[٤٣] فلا غرو أن يبرز ابن رشيق فى مجال الأدب ، وتتفتح أكمام أدبه وتبدو مخايل نجابته ، وتظهر ملامح شخصيته فى مجال الأدب والنقد ، وكيف لا وقد تتلمذ على كثرة كاثرة من العلماء ، وبخاصة هؤلاء الذين أومانا إليهم آنفا . وقد كانوا من العلماء المحققين ، والأدباء المبرزين ، كم أنه ارتشف أفاويق العلم واحتلب درارى الأدب . من المجالس العلمية والأدبية فى مدينة القيروان ، كما أن ابن رشيق أفاد من العلماء والأدباء الذين كانت له بهم صحبة ، وصداقة وعشرة فاجتمع بهم ونقدهم ونقدوه ، وطارحهم وطارحوه ، وبين هؤلاء : خلف بن أحمد القيروانى الشاعر المطبوع ، وأبو عبد الله الصفار الصقلى الاديب البارع ، ومنهم أيضا : ابن شرف الجذامى وكان شاعرا مشهورا ، وكاتبا ذائع الصيت ، وكان ذلك الشاعر ابن رشيق القيروانى من المقربين لدى الامير المغربى بادس . على سائر من فى حضرته من الأفاضل والأدباء ، فكان يقرب هذا تارة ، ويدنى هذا تارة أخرى ، فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقضات[٤٤] .

ويمكن فى ضوء هذا الحديث أن نحدد المؤثرات العامة فى شخصية ابن رشيق الأدبية ، فيما يلى :

---

[٤٣] - راجع العمدة لابن رشيق ص ١٤ . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ط ص ١١١ .

[٤٤] - راجع معجم الأدباء لياقوت الحموى ٣٧ / ١ – دار المأمون ..

أولا : البيئة العلمية التى عاش فيها ابن رشيق وتأثر بها وهى بيئة القيروان بما عرفت من إزدهار علمى ، وتفوق أدبى وضمها لكثير من العلماء الأعلام الذين عاشوا فى ربوعها ونشروا العلم فيها .

ثانيا : تشجيع الأمير (المعز بن باديس) ورئيس ديوانه " أبى الحسن بن أبى الرجال الكاتب لابن رشيق " . وقد كانا محبين للعلم والأدب مما دفع ابن رشيق إلى التفوق فى هذا المجال .

ثالثا : عمله بالكتابة فى ديوان (المعز بن باديس) مما صقل فيه موهبته الكتابية ، والكتابة من لا يخوض غماره إلا الأديب البارع الذى أوتى حظا من البلاغة ، ونصيبا من البيان ، وقسطا من قوة الحجة ، وسلاسة القول ، وفصاحة الكلام .

رابعا : ثقافته اللغوية التى جنى ثمارها ، واقتطف أزاهيرها ، وعب سلافها، وارتشف رحيقها عن شيوخه الأجلاء وأساتذته النجباء ، فى كل فنون اللغة ، وآدابها: ورقائقها وألوانها ، واتى كانت نتاجا لاطلاعه الواسع ، وقراءته الكثيرة فى العلوم والمعارف .

خامسا : روح المنافسة التى كانت بينه وبين شرف الجذامى ، الشاعر المشهور والكاتب المعروف . وقد أذكى روح المنافسة بينهما كما اومانا إلى ذلك آنفا (الأمير المعز بن باديس) فكان التنافس بينهما يذكيه المعز تارة ، وتشعله الرغبة فى السبق والتقدم تارة أخرى .

والغريب أن يصنع ابن رشيق رسالة ينقد فيها الشعر والشعراء ويسميها (أعلام الكلام) وهذا يدل على ما كان بينهما من روح المنافسة فى مجال العلم والأدب[٤٥] .

---

[٤٥] - راجع قراضة الذهب لابن رشيق ط الفتح . وأعلام الكلام لابن شرف الجزامى ط الخانجى ١٩٢١ ، ومجلة كلية البنات الاسلامية بأسيوط من بحث للزميل الدكتور على طلب العدوى ص ١٢٧٠ وما بعدها العدد الخامس ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٠ م بتصرف .

شاعريتـــــه

يعد ابن رشيق القيروانى بين شعراء عصره من الأفذاذ والمبرزين ، وكـــان ابن رشيق وابن شرف الجذامى شاعرى الأمير (المعز باديس) . ويقدمـــه بعـــض النقاد على ابن شرف فى الصياغة والإجادة ، مع أن ابن رشيق يعرف لنفسه قدرها، ويضعها حيث يجب أن تكون ، فلا يباهى بشعره ، ولا يسمح لنفسه بالتطاول علـــى الآخرين وتلك شيمة العلماء ، وسجايا المخلصين للعلم ، فلا يتطاول على الشـــعراء من أمثال المتنبى والبحترى وأبى تمام على الرغم من ان ابن رشيق كـــان مغرمـــا بمعارضة شعراء المشرق من أمثال البحترى والمتنبى .

ونجد ذلك مبثوثا فى ثنايا كتابه العمدة فى محاسن الشعراء وآدابـــه ونقـــده ، وهذا دليل على شاعريته الفذة ، وبراعته فى الشعر مع تواضعه الجم حين يقرر أنه لا يتساوى مع هؤلاء فى الشاعرية . ومن ذلك قوله فى معارضـــته لأبـــى الطيـــب المتنبى ، وقد ذكر أبو الطيب الخيل فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الإبـــل لما يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة ، فقال يذكر قدومه إلـــى مصر على خوف من سيف الدولة :

ويوم كليـــل العاشقين كنتـــه ... أراقب فيه الشمس أيان تغرب

وعينى إلى أذنـــى أغر كأنـــه ... من الليل باق بين عينيه كوكب

له فضلة عن جسمه فى إهابه ... تجىء على صدر رحيب وتذهب

شققت به الظلماء أدنى عنانه ... فيطغى وأرخيـــه مـــرارا فيلعب

وأصرع أى الوحش قفيتـــه به ... وأنـــزل عنـــــه حين أركـــب

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت فى عين من لا يجرب

إذا لم نشاهد غير حسن شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب(٤٦)

---

٤٦ - العمدة . لابن رشيق القيروانى ١ / ٢٢٩ ط – دار الجبل - بيروت – لبنان – بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

obeikandl.com

وقد قلت أنا وإن لم أدخل فى جملة من تقدم ، ولا بلغت خطته مــن قصــيدة اعتذرت بها إلى مولانا خلد الله أيامه من طول غيبة غبتها عن الديوان .

إليك يخاض البحــر فعــم كأنــه بأمواجه جيــش إلــى البر زاحــف
ويبعث خلف النجــح كل منيفــة تريك يداها ك يف تطوى النبائف
من الموجنات اللائى يقذفن بالحصى ويرمــى بهــن المهمــة المتقــاذف
يطير اللغــام الجعــد عنــها كأنه من القطن أو ثلج الشتاء ندائــف(٤٧)
وقد نازعت فضل الزمان ابن نكبة هو السيف الاما أخلصته المشــارف
وقد قــرب الله المسافــة بيننــا وأنجزنى الوعــد الزمان المســاوف
ولولا شقائى لــم أغب عنك ساعة ولا رام صــرفى عــن جنابك صــارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم أصــب وقد يخطىء الرشد للفتى وهو عارف

وواضح أن ابن رشيق قد تأثر بالمتنبى فى هذه الصورة التى رسمها لناقتــه ، ولكن ابن رشيق لا يبلغ شأو المتنبى ، ولا يصل إلى مقدرته الفنية .

على أن نظرة فنية فى شعر ابن رشيق تؤدى إلى إنصاف هذا الرجــل والحكم بأنه له ديباجة لا تقل عن ديباجة المتنبى ، وأبياته المتقدمة تدل على ذلك .

وما يحتويه شعره من جزالة الألفاظ وفخامتها ؛ وقوة تسجها ، ثم ما فيه مــن إحكام الترتيب ، وتساوق الجمل وإلتحام أجزائه بعضها مع بعــض ، ممــا يشــهد بشاعرية متمكنة تؤثر جزل القول وتقرض الشعر رزينا رصينا فى الجزالــة حتــى ليحسب قارىء شعره فى وصف الناقة . أنه يقرأ لشاعر جاهلى ، فضــلا عــن أن يحسبه لشاعر كالمتنبى ، وبخاصة قوله :

من الموجفات اللائى يقذفن بالحصى ويرمــى بهــن المهمــه المتقاذف
يطــير اللغــام الجعــــد كأنــه من القطن أو ثلج الشتاء ندائف(٤٨)

---

٤٧ - اللغام : الزبد الذى يخرجه الجمل فمه . الندائف : جمع نديفة وهى قطعة من القطن تضرب بالمندف وهى الخشبة التى شد بها وتر العزل الورق عن القطن .

ولم يقف باحث على ديوان لابن رشيق . إلا الأستاذ عبد العزيز الميمنى يذكر انه وجد بمكتبة " الاسكوريال " قطعة من ديوان ابن رشيق[٤٩] .

وما ورد من شعره فهو منثور بين دفات الكتب وكنوز المعرفة من أمثال كتابه : العمدة ، ومعجم الأدباء : لياقوت الحموى ، وغيرهم من كتب التراث .

وقد قام الأستاذ " عبد العزيز الميمنى " بجمع شعر ابن رشيق المبثوث فى بطون الكتب ، ودفات كنوز المعرفة كم ديوان أسماه " النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف "[٥٠] والمطالع لشعر ابن رشيق فى كتابه " العمدة " وغيره من أمهات الكتب يرى شاعرا مرهف الحس ، ذواقه ، ، تسمو به شاعريته إلى مصاف الشعراء المفلقين من أمثال البحترى وأبى تمام ولعل الأيام تكشف لنا عن بقية ديوانه وتراثه الضائع فى المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة وبخاصة مكتبات أوربة التى عنيت بالتراث العربى والإسلامى وشغفت بحفظه ، ودراسته ، واما أغراض شعره فجاءت متعددة متنوعة فنجد لديه من الأغراض ما وجد لدى الشعراء المبرزين من ؟، وهجاء ، ووصف ، ورثاء ، وغزل وعتاب ، وحكمة إخوانيات ، وإليك نموذجا لكل غرض من الأغراض المذكورة ففى المديح نرى شاعرا مطبوعا ، ذا حس مرهف ، وذوق أدبى رفيع من ذلك قوله فى مدح " الأمير المعز بن باديس " وقد غمره بعطفه ، وانتظمه بحنانه ، وأسبغ عليه عطاياه . فقال :

يا ابن الأعزة من أكابر حمير ... وسلالة الأملاك من قحطان

من كل أملح واضح بلسانه ... يضع السيوف مواضع التيجان(٥١)

---

[٤٨] - راجع ابن رشيق للأستاذ / عبد الرؤف مخلوف ص ١٤٢ . بحث بمجلة كلية البنات الاسلامية بأسيوط للزميل الدكتور على طلب ص ١٤١ .

[٤٩] -

[٥٠] - هذا الديوان طبع المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ ه .

[٥١] - راجع معجم الأدباء لياقوت الحموى ٨ / ١١٢ .

وفى مضمار الوصف يصفه بالشجاعة وقوة البأس ، وأنه اعتاد خوض الحروب غير هياب ولا وجل فيقول واصفا لمعركه خاضها الامير :

لدن الرماح لما يسقى أسنتها ... من مهجة القيل أو من ثغرة البطل
لو أثمرت من دم الأعداء سمرقنا ... لأورقت عنده سمر القنا الذبل
إذا توجه فى اولى كتائبه ... لم تفرق العين بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته ... نفض العقاب جناحيه من البلل
يأتى الامور على رفق وفى دعة ... عجلان كالفلك الدوار فى مهل (٥٢)

والصورة التى رسمها ابن رشيق لا ريب فى انها صورة رائعة تدل على ذوقه الرفيع ، وحسه المرهف ، وذهنه المتقد حيث صور الرماح وهى تنهل من دماء الأبطال، والمعز بن باديس يتوسط الجيش فى إقدام وشجاعة . ذلك الجيش الذى لا تستطيع أن تفرق العين بين السهل والجبل لكثرته وهو ينفض رماحه وأسيافه كما ينفض العقاب جناحيه من البلل ، وأنه يدبر الأمور فى رفق وهدوء ، وفى الوقت نفسه تسير الأمور سيرا طبيعيا فى مهل وتؤدة وتصبر وأناة مثلها كمثل الفلك الدوار وذلك دليل على أن الممدوح يتصف فوق ما تقدم بالرزانة والدعة والهدوء مع الصرامة والقوة .

ونرى ابن رشيق يحافظ على التقاليد العربية القديمة حيث إنه يستهل قصائده بالغزل جريا على سنن الشعراء المحافظين ، ومثال ذلك قوله فى قصيدة يمدح بها المعز بن " باديس " :

ذمت لعينك أعين الغزلان ... قمر أقر لحسنه القمران
ومشت ولا والله ما حف النقا ... مما رأتك ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير أن ديانتى ... تأبى على عبادة الأوثان (٥٣)

---

٥٢ ذاته .
٥٣ - راجع معجم الأدباء ٨ / ١١٢ .

كما أن له قدرة فائقة فى الوصف ، مما يدل على أنه شاعر لماح فهو مصور بـــارع يعجز الرسام عن تجسيم الصور التى يأتى بها شاعرنا ، ولو أنه استخدم كل ما يملك من ألوان وظلال .

من ذلك قوله فى وصف زرافة . أتت هدية من مصر إلى المعز بن باديس ، فيقول ابن رشيق وصنعت أنافى زرافة أتت فى الهدية من مصر إلى مولانا خلد الله ملكـــه من قصيدة طويلة :

وأتتك من كسب الملوك زرافة ... شتى الصفات لكونها أثناء

جمعت محاسن ما حكت فتناسبت ... فى خلقها وتنافت الأعضاء

تحتثهـا بين الخوافـق مشيـة ... باد عليها الكبر والخيـلاء

وتمد جيدا فى الهواء يزينها ... فكأنه تحت اللـواء لواء

حطت مآخرها وأشرف صدرهـا ... حتى كأن وقوفهـا إقعـاء

وكان فهو الطيب ما رجمـت به ... وجه الثرى لو لمت الاجزاء

وتخيرت دون الملابـس حـلـة ... عيت لصنعة مثلها صنعاء

لونـا كلـون الزبـل إلا أنـه ... جلى وجزع بعضه الجـلاء

أو كالسحاب المكفهـرة خيطت ... فيه البروق وميضها إيماء

أو مثل ما صدئت صفائح جوشن ... وجرى على حافاتهن جلاء

نعم التجافيف التى ادرعت به ... من جلدها لو كان فيه وقاء[٥٤]

وقال فى وصف الغزالة أيضا :

ومجنونة أبـدا لـم تكـن ... مذللة الظهـر للراكب

قد اتصل الجيد من ظهرها ... بمثل السنام بلا غارب

ملمعـة مثـل مـا لمعـت ... بحناء وشى يد الكاعب

كـأن الجـوارى كنفتهـا ... لخالـخ من كـل جانب (٥٥)

---

[٥٤] - راجع العمدة لابن رشيق القيرولنى ٨ / ٢٩٧ . ٢٩٨ – دار الجيل – بيروت – لبنان .

والشاعر فى هذه الأبيات يصف الزرافة ، ويشبهها بالفرس التى لم تعد للركوب ، فهى مكرمة ، وهى فى نظر الناظرين تبدو جميلة كفتاة حسناء يفوح منها أرج الطيب ، وهى صورة دقيقة فيها من اللون والحركة ما يدل على أن الشاعر يملك حسا مرهفا ، وذوقا أدبيا رفيعا . ولو أن رساما حاول رسم هذه المعانى ، وإبراز تلك الصور فى لوحة فنية لعجز عن استيعاب الصورة ، ولما اتسمت لوحته لهذه المعانى الرائقة ، وتلك الأخيلة الرحيبة والصور الممتعة الجميلة .

مؤلفاتـــــه

لقد خلف ابن رشيق القيروانى ثروة علمية وأدبية خالدة أفاد منها العلماء ، والأدباء والشعراء وستبقى معينا ثرا يغترف منها عشاق الدراسات الادبية وغيرهم من محبى العلم وطلاب المعرفة . ومن هذه الؤلفات ما يلى :

أولا : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده .

وهو الكتاب الذى يحمل اسمه بل جعله فى عداد الخالدين كما أنه أهمية جليلة لدى المشتغلين بالدراسات النقدية .

ثانيا : قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب .

وهو ذو فائدة جمة فى مجالى الأدب والنقد .

ثالثا : كتاب الغرائب والشذوذ فى اللغة .

رابعا : بلغة المشتاق فى ذكر أيام العشاق .

خامسا : أنموذج الزمان فى شعراء القيروان .

سادسا : الرسائل الفائقة والنظم الجيد .

سابعا :نسخ الملح ، ونسخ اللمح[٥٦] .

ثامنا : سر السرور[٥٧] .

---

[٥٥] - ذاته ص ٢٩٨ ط الجيل – بيروت .

[٥٦] - راجع تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٥ / ٣٤٤ وما بعدها .

[٥٧] - راجع كشف الظنون لحاجى خليفى .

opelkandi.com

تاسعا : المساوىء فى كشف السرقات الشعرية[٥٨] .

ولقد ذكر صاحب كشف الظنون مؤلفات أخرى منها " شرح موطأ مالك " و " تاريخ القيروان "[٥٩] .

وذكر له صاحب" بساط العقيق " كتاب " الروضة الموشية فى شعراء المهدية" وكتاب " ميزان العمل فى تاريخ الدول " .

وهذا الكتاب أهداه ابن رشيق القيروانى إلى" أبى الحسن على بن أبى الرجال " بعد أن وجد حاجته لديه ، وبلغ شأو عظيما عنده وله بخلاف ذلك رسائل صنعها فى الرد . على " أبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى " وكانت بينهما مناقضات ومهاجاة ، فصنف عدة رسائل فى الرد عليه ذكر منها فى كتاب العمدة الرسائل الآتية :

أولا : رسالة سماها " ساجور الكلب " .

ثانيا : رسالة سماها " نجح الكلب " .

ثالثا : رسالة سماها " قطع الأنفاس " .

رابعا : رسالة سماها " نقض الرسالة الشعوذية " .

خامسا : القصيدة الداعية ، والرسالة المنقوضة .

سادسا : رسالة : رفع الإشكال ودفع المحال .

ولابن رشيق مؤلفات أخرى مبثوثة فى أمهات الكتب الأدبية ، ومظانها المختلفة ، وبلغت تآليف ابن رشيق القيروانى ثلاثين مؤلفا .

---

[٥٨] - راجع بساط العقيق للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ص ٨٩ ط تونس سنة ١٣٣٠ ه وبحث للأخ الفاضل أ.د .على طلب . مجلة كلية البنات بأسيوط – العدد الخاص – ص ١٥٣ .

[٥٩] - راجع معجم الأدباء لياقوت الحموى ٨ / ١١٥ .

obeikandl.com

ومما يؤسف ويؤسى أنها ضاعت مع ما ضاع من كتب التراث لغيره ، ولـــم يبق لنا الزمن من هذه التآليف العظيمة سوى " العمدة " وقراضة الذهب " والجـــزء الباقى من ديوانه الشعرى " والذى عثر عليه بمكتبة " الأسكوريال "[٦٠] .

وهذه التواليف المتعددة ، والتآليف المتباينة ، والمؤلفات الجمة ، مـــن كتـــب ورسائل تدل دلالة حاسمة على ما اتصف به " ابن رشيق " من غزارة المعـــارف ، وحدة الذكاء ، وسعة الأفق ، وعبقرية فذة ، أفاد منهـــا طـــلاب العلـــم ، وعشـــاق المعرفة.

[٦٠] - راجع ابن رشيق للأستاذ عبد العزيز الميمنى ط السلفية ص ٨٣ سنة ١٣٤٣ ه .

obeikandl.com

بين يدى الكتاب

إن كتاب العمدة كتاب جمع أحسن ما قاله كل واحد ممن صنف فى معانى الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعول مؤلفه فيه على قريحة نفسه ونتيجة خاطره خوف التكرار ، ورجا الاختصار إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فإنه لم يغير شيئا من لفظه ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه ، وقد صنفه كمادة أكثر العلماء لأبى الحسن على بن الرجال الكاتب زعيم الكرم ، وواحد الفهم الفهم الذى نال الرياسة ، وحاز السياسة وهو فى نظر ابن رشيق يجمع فوق هذه الخلال سلامة الطبع واندفاعه ، وقرب لفظ واتساعه ، ورقة معان وإرهافها ، وظهورها مع ذلك وانكشافها ، مع لطف مواقعها من القلوب وسرعة تأثيرها فى النفوس ، فهو أديب وشاعر عظيم ، وابن رشيق مفتون به وبأدبه ، وقلما خلا باب من أبواب كتابه من غير أن يختار من شعره ما يناسب هذا الباب[٦١] .

وكتاب العمدة الذى بين أيدينا يضم بين دفتيه كثرة كاثرة من الأبواب التى يدور معظمها حول نقد الشعر وصياغته ، وما يتصل بهما من وزن وقافية ، وإلى جانب ذلك نرى ابن رشيق فى كتابه يضم إلى هذه المباحث مباحث أخرى ليست وثيقة الصلة بموضوعات الشعر ونقده ، ولكنها فى نظره تفيد هذه الدراسة ، وتلك عادة المؤلفين الذين زامنوه فى التصنيف .

وذلك كأن يتحدث فى باب من أبواب الكتاب عن أصول النسب ، وبيوتات العرب ، وفى ثان يتحدث عما يتعلق بالأنساب ، وفى ثالث يتحدث عن وقائع العرب وأيامه ، وفى رابع يتناول ملوك العرب ، ثم يذكر فى الباب الخامس العتاق من الخليل ، ثم يحدثنا فى الباب السادس عن حكم البسملة قبل الشعر ، ثم يطالعنا فى الباب السابع بذكر الجوائز والصلات ، وفى الباب الثامن يذكر أحكام القوافى

---

[٦١] - راجع العمدة لابن رشيق ص ٣٠٤ بتصرف – ط – دار الجيل – بيروت .

والخط[٦٢] ، فنرى ابن رشيق يجارى حركة التأليف فى عصره من حيث الشمول ، وعدم التخصص الدقيق بلغة العصر الحديث ، فكانت تآليفهم شاملة غير متخصصة بالبحث فى موضوع معين ، فتحس حين تطالع مؤلفا من هذه المؤلفات أنك فى روضة غناء ، وحديقة فيحاء ، تنتقل بين أعطافها مستمتعا بأرج أزهارها من ورد إلى آس ، ومن نرجس إلى ياسمين .

والكتاب يحوى مادة علمية غزيرة ذات فائدة جمة ، ومما لا ريب فيه أن هذا الكتاب لا غنية لباحث عنه ، وهو احد المصادر الأدبية الهامة .
ولكن المؤلف خانه التوفيق حيث إنه يبتدىء الكلام عن موضوع بعينه ويفرده بباب من الأبواب ، ثم ترك يعود إلى الحديث ذاته فى باب آخر بعد الفصل بينهما بأبواب أخرى ونسوق مثالا على ذلك ، فإننا نراه بعقد بابين للأوزان والقوافى فى الجزء الأول[٦٣] ثم يعود فيعقد بابين آخرين فى الجزء الثانى من الكتاب للكلام عن الزحاف وأحكام القوافى[٦٤] .

ويمكن بعد هذا العرض الموجز أن نقسم الكتاب إلى الأقسام الآتية :
أولا : قسم خاص بالأدب ، وينتظم هذا القسم : الحديث عن الشعر وفضله وذكر أشعار الخلفاء ، والقضاة والفقهاء ، ومن رفعه الشعر ومن وضعه وشفاعات الشعراء وتحريفهم وتعرض الشعراء والتكسب بالشعر والأنفة منه وتنقل الشعر فى القبائل ؛ ثم يتحدث عن القدماء والمحدثين ، والمقلين من الشعراء ، ثم يعقد بابا فى اللفظ والمعنى وفى المطبوع والمصنوع ، وتعرض ابن رشيق لهذه المباحث دليل على رحابة أفقه ، وغزارة معارفه ، وهذا القسم ينتظم مساحة واسعة من الكتاب .

ثانيا : والقسم الثانى منه يندرج فى إطار النقد الأدبى حيث إنه يتحدث عن مفهوم الشعر وموضوعاته والسرقات الشعرية ، والمطبوع والمصنوع ، وموقف النقاد من

---

٦٢ - راجع العمدة لابن رشيق القيروانى جـ ٢ بتصرف ص ١٨٠ وما بعدها .
٦٣ - راجع العمدة ١ / ١٣٤ . ١٥١ وما بعدها . دار الجيل بيروت .
٦٤ - ذاته ٢ / ٢٠٩ .

قضية اللفظ والمعنى ، وبناء القصيدة الشعرية إلى غير ذلك مما يعد فى مجال النقد الأدبى .

ثالثا : والقسم الأخير من الكتاب ذو أبواب كثيرة ، فهو يتحدث عن التشبيه والاستعارة ، والجناس والمبالغة ، والغلو إلى غير ذلك من ألوان البديع المبثوثة فى الكتاب .

ويقول الدكتور / عبد الواحد علام : إنه أول كتاب فى المغرب العربى حاول صاحبه الإسهام فى تطور النظرية النقدية عند العرب ، كما حاول إخلاص الإسهام فى تطور علوم البلاغة معتمدا فى كثير من الأحوال على ذوقه النقدى الخاص يدل على فهم كامل للأساليب الشعرية ، ومقاييس النقد الأدبى[٦٥] .

ولقد كان لابن رشيق أسلوبه المميز حيث عرف بالترسل الذى ينطلق فيه الكاتب على سجيته ، دون تكلف ولا صنعة ، إلا ما جاء عفو الخاطر من زخرف لفظى ، أو صبغ بديعى ، ولذلك نرى أسلوبه يدل على ذوق أدبى رفيع ، ولعل ذلك راجع إلى عمله بالكتابة فى ديوان المعز بن باديس وكانت الكتابة فى داووين الأمراء والخلفاء حرفة الذين تملكوا أزمة البيان ، وأخذوا بناصية البلاغة ، ورزقوا موهبة التعبير وحسن الصياغة . ولا غرو أن هؤلاء يجىء أسلوبهم مميزا لكثرة الدربة والتمرس بالأساليب العربية القوية ، ومن ثم كان لذلك أثره الواضح فى أسلوب ابن رشيق ، فهو لا يلجأ إلى الزخرف اللفظى ولا إلى الصبغ البديعى كالسجع وغيره من الزخارف اللفظية إلا ما جاء عفو الخاطر ودون قصد . ولذلك تراه مستملحا لا ينفر منه الذوق .

---

[٦٥] - راجع مجلة الهلال ص ٨٩ ديسمبر ١٩٧٥ م مقال للدكتور / عبد الواحد علام ومجلة – كلية البنات بأسيوط – العدد الخامس من بحث للزميل / الدكتور / على طلب ص ١٥٥ وما بعدها .

openkandi.com

بعد هذا الغرض يستبين لنا بوضوح وجلاء تامين أن ابن رشيق كان يعتمد فى عرضه للقضايا النقدية والأدبية على النقل والرواية ، كما كان يعتمد علـــى الـــذوق والحاسة أيضا . وفى ذلك يحدثنا ابن رشيق فيقول :

" وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ، ونتيجة خاطرى ؛ خوف التكرار ، ورجـــاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر ، وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شىء من لفظه ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه ، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك إلا أن يكون متداولا بين العلمـــاء ، لا يختص به واحد منهم دون الآخر . وربما نحلته أحد العرب وبعـــض أهـــل الأدب ، تسترا بينهم ، ووقوعا دونهم بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل نوع إلـــى أصله وبينت للناشىء المبتدىء وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه ليس الارتياب به : حتى اعرف باطله من حقه وأميز كذبه من صدقه[٦٦] .

ومن بيت ما ميز ابن رشيق عن غيره من الأمانة العلمية : فنراه يســـند كـــل رأى إلى صاحبه فيقول :

" وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز إلا ما لا خفاء به على أحـــد من التمييز ، واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد "[٦٧] .

كما أننا نرى الاستطراد سمة من سمات التأليف لهذا العصر وعليها سار ابن رشيق . بيد أنه يلجأ إليها أحيانا مراعيا من رفع إليه الكتاب وهو " أبو الحسن على بن الرجال " مما جعله يخرج إلى حديث لا صلة له بالباب الذى يتحدث فيه : وإنمـــا الذى دفعه إلى ذلك هو قصده إيراد شعر أو رأى لأبى الحسن الرجال . فتراه يعقـــد حديثا عن الشعراء الكتاب كمن يلج منه إلى الحديث عن شعر أبى الحسن على بـــن أبى الرجال . والمطالع لكتاب العمدة يلمس طريقة ابن رشيق فى معالجتـــه للشـــعر

---

[٦٦] ١- راجع العمدة لابن رشيق ص ١٦ . ١٧ – ط – دار الجيل – بيروت .
[٦٧] - ذاته .

حيث إنه يتسم بالشمول والفهم ، والمراعاة لجوانب متعددة كالاهتمام بالرواية وفهم النص وتحليله تحليلا يدل على نضج عقلى ومعرفة دقيقة تساعده على تفسير النص ودراسته وتحليله .

ومن هذا المنطلق استطاع ابن رشيق فى كتابه أن يقدم دراسة متصلة بالشعر والشاعر . فتراه قد تكلم عن الأنساب والأيام ، ومعرفة ملوك العرب والإبل والخيل وأدوات الحرب ، وهذه الأمور كلها مندرجة تحت مفهوم الثقافة العامة كما عرفها ابن رشيق .

وعلى الرغم من أن ابن رشيق يميل إلى النقل أحيانا فى هذا الكتاب كما أومأنا إلى ذلك آنفا ، إلا أننا نراه صاحب رأى يعتد به ويعول عليه . ومن ذلك رأيه فى قضية النظم والسرقات الشعرية ، والغلو والتشبيه والمبالغة مع القدرة على تحليل النص الشعرى معللا لما يبديه من آراء أو وجهة نظر وفى الكتاب جانب نقدى له أهمية فى مجال النقد ؛ كما انه يدل على أن ابن رشيق لم يكن متلقيا عن شيوخه فحسب بل كان يتلقى عن شيوخه ، ثم يقدح زناد فكره فيما يتلقاه ويقرؤه فيقبل منه ما يروقه فى نظره ويرفض ما يرفضه عقله وفكره . كما ان له رؤية خاصة تدل على ثقافته الواسعة وبصره الثاقب وحسه المرهف وذوقه الأدبى الرفيع . وتلك مؤهلات لابن رشيق رشحته لتأييد مذهب ومعارضة آخر .

ويبدو واضحا أن ابن رشيق تأثر بمن سبقه من الأدباء والنقاد فى كتابه (العمدة) كابن سلام الجمحى فى كتابه " طبقات الشعراء " وعمرو بن عثمان بن بحر الجاحظ فى كتابه " التبيين " . وقدامة بن جعفر فى كتابه " نقد الشعر " وابن طباطبا العلوى فى كتابه " الوساطة " والآمدى فى كتابه " الموازنة " والحصرى فى كتابه " زهر الأداب وثمرة الألباب " وغير هؤلاء كثير تأثر بهم ابن رشيق فى كتابه العمدة .

وللكتاب قيمة أدبية نقدية كبيرة حيث إنه يجمع كثرة كاثرة من القضايا الهامة فى مجال النقد الأدبى والتى لا غنية لباحث أو أديب أو ناقد من النظر فيها والإفادة منها .

ومن بين النظرات والرؤى النقدية المبثوثة بين دفتى الكتاب محاولته تحديد مفهوم الشعر ، فيعقد بابا بعنوان " باب حد الشعر وبنيته " يرى فيه ابن رشيق أن الشعر يقوم بعد البنية على اللفظ والوزن والمعنى والقافية ثم يستطرد فيقول : فهذا حد الشعر لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء من القرآن ومن كلام النبى (ﷺ)[٦٨] ثم يأخذ فى تفصيل القول مستشهدا بآراء من سبقوه فيقول مثلا :

وقال بعض العلماء بهذا الشان : بنى الشعر على أربعة أركان : وهى : المدح والهجاء والنسيب والرثاء وقال عبد الكريم : يجمع أصناف الشعر أربعة :

" المدح والهجاء والحكمة واللهو " ثم يتفرغ من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح : المرائى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ويكون من اللهو الغزل والطرد ، وصفة الخمر والمخمور[٦٩] وتراه يسير على تلك الوتيرة من الاستشهاد بآراء من سبقه من النقاد فيقول : قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب الوساطة " الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه . فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى والمخضرم ،

---

[٦٨] - انظر العمدة لابن رشيق ص ٩١١ ، ١٢٩ دار الجيل بيروت .
[٦٩] ذاته ص ١١١ .

والأعرابى والمولد ، إلا أنى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر "[٧٠] .

ومع استشهاد ابن رشيق بآراء غيره من النقاد ، نراه صاحب رأى راشد مع ذكاء ولماحية . فهو يرى إذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ ابتدعه أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه من وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه " مجازا لا حقيقة " ولم يكن له إلا فضل الوزن وليس بفضل عندى مع التقصير[٧١] .

فهو يرى أن الشعر ما هز النفوس وأطرب ، وحرك الطباع . ومن هذا المنطلق نرى ابن رشيق يختلف مع قدامة بن جعفر ، الذى وقف بالشعر عند حد اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، كما نرى ابن رشيق يورد كثيرا من النصوص الشعرية مبينا الجيد منها والردىء مؤكدا بذلك آراءه النقدية التى أوردها فى الكتاب .

ومن الملفت للنظر نص ابن رشيق على القصد والنية فى اعتبار الكلام شعرا أو غير شعر ، حيث يقول : الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء (اللفظ والوزن والمعنى والقافية) . فعذا هو حد الشعر ، لأن من الكلام موزونا مقفى ، وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن ، ومن كلام النبى (ﷺ) وغير ذلك مما يطلق عليه أنه شاعر[٧٢] .

وما ينبغى لابن رشيق ، ولا لغيره من النقاد الخوف على كتاب الله وعلى رسول الله (ﷺ) أن يدخلا فى جملة الشعراء لموافقة بعض آيات من القرآن أيضا. فقال تعالى : مبيتا أن القرآن ليس شعرا بقوله عز وجل : " وما هو بقول

---

[٧٠] - العمدة لابن رشيق ص ١٢٢ ط . دار الجيل – بيروت .
[٧١] - ذاته ص ١١٦ .
[٧٢] - العمدة ١ / ١١٠ ، ١٢٠ ط – دار الجيل – بيروت – لبنان .

شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون – تنزيل من رب العالمين "[٧٣] .

كما ينفيه عن رسوله عليه السلام بقوله تعالى " وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين "[٧٤].

وابن رشيق يرى رأيا معتدلا فى قضية (اللفظ والمعنى) : فهو لا يفضل أحدهما على الآخر . بل يرى أنهما مترابطان . ولا غناء لواحد منهما عن الآخر . فيقول : اللفظ جسم . وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ ، كان نقصا للشعر . وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل ، والعور ، وما أشبه ذلك ، منغير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعنى ، واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل "إلا من جهة اللفظ ، وجريه على غير الواجب . قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله . وفسد . بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه . وإن كان حسن الطلاوة فى السمع . كما أن الميت لا ينقص من شخصه شىء فى رأى العين . إلا أنه لا ينتفع به . ولا يفيد فائدة . وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى . لأنا لا نجد روحا فى غير جسم البتة[٧٥] .

ثم يسرد ابن رشيق آراء غيره من النقاد . مبينا ما ذهب إليه كل فريق . فيقول : منهم من يؤثر فى اللفظ على المعنى . ثم يوضح ذلك بقوله : ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعنى بها . واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط كأبى

---

[٧٣] - سورة الحاقة – الآيات ٤١، ٤٢ ، ٤٣ .
[٧٤] - سورة يس الآيات : ٦٩ ، ٧٠ .
[٧٥] - العمدة لابن رشيق القيروانى ١ / ١٢٤ دار الجيل – بيروت .

العتاهية وعباس بن الأحنف[٧٦] ، ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقيمه وخشنوته كابن الرومى وأبى الطيب[٧٧] . ثم يورد ابن رشيق حجة من آثر اللفظ فيقول :

قال العلماء : " اللفظ أغلى من المعنى ثمنا ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ، فإن المعانى موجودة فى طباع النفوس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التآلف ، ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المضاء بالسيف ، وفى الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة ، والعذوبة والطلاوة[٧٨] ، والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر وبعضهم يمثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس ، فقد بخست حقها وتضاءلت فى عين مبصرها[٧٩] .

ومن القضايا النقدية التى تناولها ابن رشيق ، قضية " الطبع والصنعة " وقد عقد ابن رشيق بابا تناول فيه هذه القضية ، وجعل من الشعر مطبوعا ومصنوعا فيقول : " ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع : هو الأصل الذى وضع أولا وعليه المدار والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين. لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ، ولا تعمل ، لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره[٨٠] .

---

٧٦ - العمدة ١٢٦ .
٧٧ - ذاته .
٧٨ - ذاته ص ١١٧ .
٧٩ - ذاته .
٨٠ - راجع العمدة ص ١٢٩ ط – دار الجيل .

وقول ابن رشيق " لكن بطباع القوم عفوا " يقصد أن ما وقع فى شعر هؤلاء من صنعة ، كالاستعارة والجناس والتشبيه جاء دون قصد أة تعمد أى أنه غير متكلف ، وذلك اللون الذى يأتى عفو الخاطر ، دون كد للذهن أو إرهاق للفكر إنما يكون مسلما ، تهش له النفس ، ويستهوى الفؤاد ، وعلى أساس هذا القول يكون الشعر المصنوع هو التكلف والذى يعمد الشاعر فيه إلى المحسنات فيكد ذهنه ، ويجهد خاطره فلا يجد له مكانا فى النفس .

ويحاول ابن رشيق الميز بين المطبوع والمصنوع من الشعراء ، أن المطبوع من يتدفق لسانه بالشعر تدفقا ، وينهمر انهمارا دون ما كد للذهن أو إجهاد للنفس فى قرض القريض وذلك فيما نراه لدى الشاعر " الحارث بن حلزة اليشكرى " فى معلقته الشهيرة . والتى أنشدها بين يدى " عمرو بن هند " وقد جاءت ألفاظها جذلة قوية فى معانيها دون تكلف أو صنعة .

وشعر الصنعة فى نظر ابن رشيق ضربان :

أولهما : ما كان فيه قصد إلى التجويد مع محاولة من الشاعر الابتعاد بشعره عما يقبحه ويحط من قدره مع تواجد الجمال الفنى البعيد عن الصنعة والتكلف ويكثر فى هذا اللون التشبيه والاستعارة ، وما إلى ذلك من المحسنات ، التى تجىء عفو الخاطر ، ودون جرى وراءها ، ونجده عند الشعراء المتقدمين .

ثانيهما : شعراء الصنعة : وهؤلاء هم الذين يجرون وراء الزخرف اللفظى[٨١] والمهنوى أيضا .

ويتحدث ابن رشيق عن هؤلاء فيقول : " واول من فتق البديع من المحدثين : بشار بن برد ، وابن هرمة ، ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العتابى ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس .

---

[٨١] - العمدة لابن رشيق ١ / ١١٠ بتصرف .

واتبع هؤلاء حبيب الطائى والوليد البحترى وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البـــديع والصنعة إليه ، وختم به[٨٢] .

ونرى ابن رشيق يوازن بين أبى تمام والبحترى وابن المعتز فى دقة ومهارة وبراعة فنية فائقة حيث يقول :

وأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ ، وما يملأ الأسماع منه ، مع التصـــنيع المحكم طوعا وكرها ، يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة .

وأما البحترى : فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام ، يسلك منه دماثـــة وسهولة ، مع أحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة ، وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من " عبد الله بن المعتز " فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شـــعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم قوافى وأوزانـــا ولا أرى وراءه غايـــة فـــى هـــذا الباب[٨٣]

ونرى ابن رشيق يعقد موازنة بين الطبع والصنعة فى الشعر مع ترجيحه لكفة المصنوع إذا أفاد معنى وأصاب المحز . فيقول : " ولسنا ندفع أن البيـــت إذا وقـــع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لـــم يجز البتة أن يكون طبعا واتفاقا إذ ليس ذلك فى طباع البشر وسبيل الحـــاذق بهـــذه الصناعة إذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه وقيل إذا كـــان الشاعر مصنعا بان جيده من سائر شعره كأبى تمام[٨٤] وهو رأى يدل على أن ابـــن

---

[٨٢] - العمدة لابن رشيق ١ / ١١١ ط دار الجيل – بيروت .
[٨٣] - ذاته ص ١٣٠ .
[٨٤] - راجع العمدة ١ / ١٣١ ، ١٣٢ ط دار الجيل – بيروت – لبنان .

رشيق يتمتع بحاسة نقدية وذوق أدبى رفيع وثقافة تمكنه من الميز بين الجيد والردىء مع معرفة بأسس النقد الأدبى .

ومن القضايا المتضمنة التى أثارها ابن رشيق " السرقات الشعرية " وقد عقد ابن رشيق للسرقات بابا أسماه " باب السرقات وما شاكلها " .

فيقول : " وهذا باب متسع جدا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة وأخرى فاضحة لا تخفى على الجاهل الغفل وقد أتى الحاتمى فى " حلية المحاضرة " بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت : كالاصطراف والاجتلاب والانتحال والاهتدام والإغارة والمرافدة والاستلحاق وكلها قريب من قريب[٨٥] .

ونراه يستشهد بآراء غيره كالجرجانى ويؤيده ويميل إليه فيقول : قال الجرجانى وهو أصح مذهبا وأكثر تحقيقا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن ولست تعد جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط به علما برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس[٨٦] .

ثم يسوق ابن رشيق رأيا آخر لعبد الكريم فى تعريف السرقة عنده حيث يقول : " السرق فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه ، وأبعد فى أخذه على أن من الناس من بعد إلا عن مثل بيت امرىء القيس وطرفة ، حين لم يختلفا إلا فى القافية ، فقال أحدهما : " وتحمل " وقال الآخر : " وتجلد " فبيت امرىء القيس قوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل

ويقول طرفة بن العبد البكرى :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد[٨٧]

---

[٨٥] ـ العمدة لابن رشيق ٢ / ٢٨٠ ط ـ دار الجيل .
[٨٦] ـ ذاته ص ٢٠ .
[٨٧] ـ ذاته ص ٢٨١ .

ثم بين فيما تكون السرقة ، وأنها تكون فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، لا فى المعانى المشتركة الجارية فى عاداتهم ، والمستعملة فى محاوراتهم وأمثالهم ، واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجزه ، كما أن تركه لكل معنى سبق إليه جهل منه ، فالشاعر الذى يأخذ المعنى بلفظه دون تغيير أو تحوير ، أو إضافة كان سارقا ، فإن غير بعض الفظ كان سالخا ، ولكنه إن غير بعض المعنى ليستره أو قلبه عن وجهه ، وغيره عن وجهته كان ذلك دليلا على حذقه ومهارته .

ويقسم ابن رشيق الشعر إلى مخترع ومولد ، فالمخترع : هو ما لم يسبق إليه قائله كقول امرىء القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها　　سمو حباب الماء حالا على حال

والمولد : هو أن يستخرج الشاعر معنى من المعانى التى استخدمها الشعراء من قبله ؛ كقول عمر بن أبى ربيعة : وقيل : وضاح اليمن .

فأسقط علينا كسقوط النوى　　ليلة لا ناه ولا زاجر(٨٨)

فبذلك ولد معنى مليحا اقتدى فيه بمعنى امرىء القيس دون أن يشركه فى شىء من لفظه ، وأما الذى فيه زيادة ، فكقول جرير يصف الخيل :

يخرجن من مستطير النقع دامية　　كان آذانها أطراف أقلام

فقال عدى بن القاع يصف قرن الغزال :

تزجى أغن كان إبرة روقه　　قلم أصاب من الدواة مدادها(٨٩)

فولد بعد ذكر القلم إصابته مدد الدواة بما يقتضيه المعنى .

ويفرق ابن رشيد بين التولد والسرقة فيقول :

---

٨٨ - العمدة لابن رشيق ١ / ٢٦٣ .
٨٩ - العمدة لابن رشيق ١ / ٢٦٤ .

إن التوليد خير عن كان فيه اقتداء بيد ان الشاعر فيه لم يأخذ قول السابق على وجهه، وإنما يأخذ الفكرة ، ويقوم بصياغتها صياغة جديدة أو يزيد فيها .

ثم نراه يتحدث عن المخترع والمتبع فيقول :

والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاد ، بان يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا أو يبينه إن كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا . فهو أولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدع ، فله فضيلة حسن الإقتداء لا غيرها . فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه وسقوط همته وضعف قدرته[٩٠] .

ويتحدث ابن رشيق عن أنواع السرقات كالاصطراف ، وهو : أن يعجب الشاعر بيت من الشعر ، فيصرفه إلى نفسه ، فإن كان الصرف على جهة المثل . فهو الاجتلاب والاستلحاق ، وإن نسبه إلى نفسه ادعاء كان ذلك انتحالا ، وهو عندهم كقول جرير :

إن الذين غدوا بليل غادورا وشلا بعينك لا يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فإن الرواة مجمعون على أن البيتين للمعلوط السعدى ، وانتحلهما جرير وانتحل أيضا قول طفيل الغنوى :

ولما التقى الحيان ألقيت العصى وماتَ الهوى لما أصيبت مقاتله(٩١)

ولا يقال منتحل إلا لمن ادعى شعرا لغيره وهو يقول الشعر ، واما إن كان لا يقول الشعر فهو مدع غير منتحل ، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة ، فتلك الإغارة والنصب ، كما فعل الفرزدق بجميل ، وقد سمعه ينشد :

---

[٩٠] ـ ذاته ٢ / ٢٩٠ وما بعدها .

[٩١] ـ العمدة ٢ / ٢٨٣ وما بعدها بتصرف .

ترى الناس ما سرنا يسيرون وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

فقال : متى كان الملك فى بنى عذره ؟ إنما هو فى مضر وأنا شاعرها ، فغلب الفرزدق على البيت ، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره : فما كان هكذا فهو غارة . وقوم يرون أن الإغارة هى . أخذ اللفظ والمعنى جميعا . والسرق أخذ بعض اللفظ أو بعض المعنى[٩٢] .

وأما الغصب فمثل صنيعه بالشردل اليربوعى . وقد أنشد فى محفل :

فما بين من لم يعط سمعا وطاعة وبين تميم غير حز الحلاقم

فقال الفرزدق : والله لتدعنه ، أو لتدعن عرضك . فقال : خذه لا بارك الله لك فيه ، فإن أخذه هبة فتلك الرافدة ، ويقال : الاسترفاد ، وهى : أن يعن الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له ، كما قال جرير لذى الرمة أنشدنى ما قلت لهشام المرئى . فأنشده قصيدته :

نبت عيناك عن طلل بحزوى محته الريح وامتنح القطارا

فقال : ألا أعينك ؟ قال : بأبى وامى ، فقال : قل له :

يعد الناسبون إلى تميم بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل سعد وعمرا ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بيتها المرئى لغوا كما ألقيت فى الدية الحوارا(٩٣)

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد .....أعده فأعاده ، فقال : كلا والله . لقد علمكهن من هو أشد لحيين منك ، هذا شعر ابن المراغة .

---

[٩٢] العمدة ١ / ٢٨٢ وما بعدها . بتصرف .

[٩٣] - العمدة ٢ / ٢٨٦ .

فإذا كانت السرقة فيما دون البيت ، فذلك الاهتدام ، ويسمى أيضا النسخ ، كما يقول النجاشى :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمت فيها يد الحدثان

فأخذ كثير القسم الأول ، واهتدم باقى البيت ، فجاء بالمعنى فى غير اللفظ ، فقال :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فإن تساوى المعنيان دون اللفظ ، وخفى الأخذ فذلك النظر والملاحقة ، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر . ومنهم من يجعل هذا هو : الإلمام . فالنظر والملاحقة كقول مهلهل :

أثبضوا معجس القس وأبرقنا كما توعد الفحول الفحولا(٩٤)

نظر إليه زهير بقوله :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب إذا ما ضاربوا اعتنقا(٩٥)

وأبو ذؤيب بقوله :

ضروب لهامات الرجال بسيفه إذا حن نبع بينهم وشريح

والإلمام ضرب من النظر ، وهو مثل قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

وقول أبى الطيب المتنبى :

أأحبه وأحب فيه ملامة ؟ إن الملامة فيه من أعدائه(٩٦)

---

٩٤ ـ ذاته ٢ / ٢٨٧ .
٩٥ ـ العمدة ٢ / ٢٨٧ .
٩٦ ـ ذاته ١ / ١٠٣ .

فإن حول المعنى من نسيب إلى مديح ، فذلك الاختلاس ، ويسمى أيضا نقل المعنى فإن أخذ بنية الكلام فقط ، فتلك الموازنة ، فإن جعل مكان كل لفظة ضدها . فذلك هو العكس ، فإن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر – وكانا فى عهد واحد فتلك الموارده ، وإن ألف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق ، وبعضهم يسميه الإجتذاب والتركيب .

أما الاختلاس فهو قول أبى نواس :

ملك قصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل من مكان(٩٧)

اختلسه من قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل(٩٨)

والموازنة مثل قول كثير عزة :

تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضا

وازن فى القسم الآخر قول نابغة بنى تغلب :

بخلنا لبخلك قد تعلمين وكيف يعيب بخيل بخيلا

والعكس قول ابن أبى قيس ، ويروى لأبى حفص البصرى :

ذهب الزمان برهط حسان الأول وكانت مناقبهم حديث الغابر

وبقيت فى خلف يحل ضيوفهم منهم بمنزلة اللئيم الغادر

سود الوجوه لئيمة أحسابهم فقس الأنوف من الطراز الآخر(٩٩)

---

٩٧ - ديوان أبى نواس .

٩٨ - الديوان .

٩٩- العمدة ٢ / ٢٨٩ وما بعدها . ط . دار الجيل – بيروت – لبنان .

وأما الموارده فقد ادعاها قوم فى بيت امرىء القيس وطرفة بن العبد البكرى: وهما بيتان متشابهان وقعا فى معلقتى امرىء القيس وطرفة بن العبد .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل

وهو لامرىء القيس ، أما بيت طرفة فهو :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد(١٠٠)

ويعلق ابن رشيق على هذا الكلام بقوله : " ولا أظن هذا مما يصلح ، لأن " طرفة " بن العبد البكرى فى زمان " عمرو بن هند " شاب حول العشرين ، وكان امرؤ القيس فى زمان " المنذر الأكبر " كهلا ، واسمه وشعره أشهر من الشمس ، فكيف يكون هذا موارده ؟
إلا أنهم ذكرو أن طرفة لم يثبت له البيت حتى استحلف أنه لم يسمعه قط ، فحلف ، وإذا صح هذا كان موارده .

ويرى الباحث أن اختلاف الزمان لا يعتد به فى ذلك ، فالموارده من الممكن ان تجىء بين شاعرين أو أكثر فى عهود متباعدة ، وأزمنة متباينة وربما يكون أحدهما لم يقرأ للآخر شيئا ، ولم يلتق به البتة ، ثم نرى توافقا بينهما فى الفكر واللفظ ، وربما يجىء التوافق فى المعنى أيضا ، فينظم الشاعر بيتا أو أكثر من بيت . فترى شطرا من البيت أو أكثر فى أبيات شاعر آخر ، وذلك هو توارد الخواطر ، أما إذا رأينا شاعرا من القدامى أو المحدثين يكثر لديه ذلك اللون فإننا نستطيع الحكم عليه بالسرقة ، أما ما يقع عفو الخاطر فى بيت أو جزء من بيت ودون تعمد أو قصد إلى ذلك ، فتلك الموارده ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول" أبى عمرو بن العلاء " حين سئل : أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ، ويتواردان فى اللفظ ، لم يلق واحد منهما صاحبه ، ولم يسمع شعره ؟

---

١٠٠ ـ ذاته ٢ / ٢٨١ .

فقال: تلك عقول رجال توافت على ألسنتها ، وسئل أبو الطيب المتنبى عن ذلك فقال: الشعر جادة ، وربما وقع الحافر على موضع الحافر ، وذلك ما نميل إليه ونؤيده وأما الالتقاط والتلفيق : فمثل قول " يزيد بن الطئرية " :

إذا ما رآنى مقبلا غض طرفه كأن شعاع الشمس دونى يقابله

فأوله من قول جميل :

إذا ما رأونى طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفونى

ووسطة من قول جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائى :

إذا أبصرنى أعرضت عنى كأن الشمس من حوله تدور

ومن هذا الباب أيضا كشف المعنى والمحدود من الشعر وسوء الاتباع ، وتقصير الآخذ عن المأخوذ منه .

ويورد ابن رشيق لذلك فيقول فأما كشف المعنى فنحو قول امرىء القيس :

نمس بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال عيدة بن الطبيب بعده :

ثمة قمنا إلأى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

فكشف المعنى وأبرزه . ونحو قول عنترة العبسى :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

وأما سوء الإتباع فهو : أن يعمل الشاعر معنى رديا ، ولفظا مستهجنا ثم يأتى من بعده فيتبعه فيه على رداءته ، نحو قول أبى تمام :

obeikandi.com

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طبولا

فقال أبو الطيب :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول(١٠١)

ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه قول أبى دهبل الجمحى فى معنى بيت الشماخ:

يا ناق سيرى وأشرفى بدم إذا جئت المغيرة

سبئيبنى أخرى سوا ك وتلك لى منه يسيره (١٠٢)

وتحدث ابن رشيق عن الأغراض الشعرية مع وضع ضوابط لهذه الأغراض، كما تحدث عن الإبداع ودور الموهبة فيه وعن الأوزان والقوافى وما إلى ذلك من الموضوعات المبثوثة فى الكتاب والتى تهم الشعراء والأدباء والنقاد ، والباحثين ، والكتاب معين لا ينضب ، وسيظل مصدرا أدبيا هاما يمنح العلماء والباحثون من ركائزه البعيدة الغور بأرشية قوية ، وأشطان فتية .

وكتاب العمدة خير شاهد على عبقرية " ابن رشيق " وحسه المرهف وذوقه الأدبى الرفيع ، ودليل صادق على ما كان يتمتع به من حاسة نقدية يميز بها بين الجيد والردىء فى الأعمال الادبية ، وهو مصدر لا غنية لناقد ولا لباحث ولا أديب عن النظر فيه ؛ والرجوع إليه .

---

١٠١ - راجع العمدة ٢ / ٢٩١ .

١٠٢ - ذاته .

openkanal.com

باب من رفعه الشعر ومن وضعه

إنما قيل فى الشعر " إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يصنع من قدر الشريف الكامل ، وإنه أسنى مروءة الدنى ، وأدنى مروءة السرى " لأمر ظاهر غاب عن بعض الناس فتأوله أشد التأويل ، وظنه مثلبة وهو منقبة ، وذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يصنع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسبا ، كالذى يؤثر من سقوط النابغة الذبيانى بامتداحه النعمان بن المنذر وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بنى ذبيان[١٠٣] .

هذا ، وإنما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم . عرابة الأوسى بشعر الشماخ بن ضرار ، وقد بذل له فى سنة شديدة وسق بعير تمرا ، فقال :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين [١٠٤]

حتى صار ذلك مثلا سائرا ، وأثرا باقيا ، ولا تبلى جدته ، ولا تتغير بهجته ، وقدم ذلك فى مروءة الشماخ ، وحط من قدره ، لسقوط همته ، عن درجة مثله من أهل البيوتات ، وذوى الأقدار ، فأما من صنع الشعر فصاحة ولسانا ، وافتخارا بنفسه وحسبه ، وتخليدا لمآثر قومه ، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ، ولا مدحا ولا هجاء ، كما قال واحد دهرنا وسيد كتاب عصرنا أبو الحسن أحسن الله إليه وإلينا فيه .

وجدت طريق البأس أسهل مسلكا وأخرى بنجح من طريق المطامع

فلست بمطر ما حييت أخا ندى ولا انا فى عرض البخيل بواقع

---

[١٠٣] - راجع العمدة ١ / ٤٠ وما بعدها ط دار الجيل – لبان .

[١٠٤] - نفس المرجع .

فلا نقص عليه فى ذلك ، بل هو زائد فى أدبه ، وشهادة بفضله ، كما أنه نباهة فى ذكر الخامل ، ورفع لقدر الساقط ، وإنما فضل إمرؤ القيس – وهو من هو – لما صنع بطبعه ، وعلا بسجيته ، من غير طمع ولا جزع[١٠٥].

[١٠٥] ـ ذاته ص ٤١ .

obeikandl.com

باب النسيب

حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ – رسلها – قريب المعانى سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار . رطب الكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين .

روى أبو على إسماعيل بن القاسم ، عن ابن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى ، عن أبى عمرو بن العلاء ، عن رواية كثير قال : كنت مع جرير – وهو يريد الشام – فطرب وقال أنشدنى لأخى بن مليح – يعنى كثيرا – فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله :

وأدنيتنى حتى إذا ما سبيتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عنى حين لا لى حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح(١٠٦)

فقال : لولا انه لا يحسن بشيخ مثلى النخير لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحدا لا يشتهى النسيب ؟ فقال أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، .... واما الغزل فهو إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شىء ، فمن جعله بمعن التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر .

وقال الحاتمى : من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه ان يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه ،فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد من الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان .

---

[١٠٦] - العمدة ٢ / ١١٦ دار الجيل .

باب أشعار الكتاب

والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيفا ، وأحلاهـم ألفاظـا ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف .

وقد قيل : الكتاب دهاقين الكلام ، وما نزيدك على قول إبراهيم بن العباس الصـولى بين يدى المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر فقال ارتجالا :

صد عنى وصدق الأقوالا وأطلع الوشاة والعـذالا

أتراه يكون شهر صدود وعلى وجهه رأيت الهلالا

فطرب له المتوكل واعتز ووصله ، وخلع عليه وحمله ، وجددله ولاية . وقيل فـى التلطف والاستعطاف أكثر من هذا ، وأى مدح أبرع وأبدع من قوله فى الفضل بـن سهل :

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها المثل

فباطنهـا للنـدى وظاهرها للقبـل

ونائلهـا للغنـى وسطوتها للأجل

أليس هذا الماء الذلال ، والسحر الحلال[١٠٧] ؟

ولقد أجاد ابن الرومى فى تناوله هذا المعنى حين قال :

مقبل ظهر الكف وهاب بطها له راحة فيها الحطيم وزمزمط

فظاهرها للناس ركن مقبـل وباطنها عين من الجود عيلـم

إلا أن الأول أخف وزنا ، وأرشق لفظا ومعنى . وهذان البيتان – وإن كانـت فيهما زيادة – فإنما هما بإزاء البيت الاوسط من أبيات إبراهيم فقط .

ومن تغزل إبراهيم قوله :

---

[١٠٧] ـ انظر العمدة ٢ / ١٠٦ .

أراك فلا أرد الطرف كيلا يكون حجاب رؤيتك الجفون

ولو أنى نظرت بكل عين لما استقصت محاسنك العيون

فهذا وأبيك البيان ، والخبر الذى كأنه العيان وما أجد كل حلاوة وحسن طلاوة ، إلا دون قوله :

ابتداء بالتجنى واقتضاء بالتظنى

واشتفاء بتحنيك لأعدائك منى

بأبى قول لى لكى أعلم لم أعرضت عنى

قد تمنى ذاك أعدائى ، فقد نالوا التمنى (١٠٨)

وأما الهجاء فقد بلغ فيه أبعد الغايات بقوله فى محمد بن عبد الملك الزيات :

فكن كيف شئت وقل ما تشاء وأرعد يمينا وأبرق شملا

نجا بك لومك منجى الذباب حمته مقاديره أن ينالا (١٠٩)

---

١٠٨ ـ ذاته ص ١٠٧ .

١٠٩ ـ العمدة ٢ / ١٠٧ .

obeikandl.com